

عَوَائِقُ الطَّلِبِ

تَأْلِيفُ

فَضِيلَةَ الشَّيْخِ الدَّكْتُورِ

عَبْدِ السَّيِّدِ الْأَمِينِ بْنِ جَسْرِ الْعَبْدِ الْكَثِيمِ

رَحِمَهُ اللَّهُ

١٣٨٧ هـ - ١٤٢٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده .

أما بعد :

فهذه كلمات موجزة - كنت قد نشرت بعضها في مجلة «المجاهد» عام ١٤٠٩هـ- تتناول بعض ما يعيق طالب العلم عن مواصلة سيره في تحصيل العلم النافع ، بالشرح والبيان .

وكان الباعث على تحريرها الإشفاق على نهضتنا العلمية من الدخيل على أسسها الثابتة التي أرساها سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين- والأخذ بيد شباب هذه النهضة المباركة نحو أفضل السبل لنيل العلوم الشرعية .

وقد سقتها على شكل معيقات ، ليكون أدعى لاجتنابها وأقوى في التحذير منها ، على أن في ضمن هذه المعيقات ما يهدي إلى توقيها ، ويعين على التخلص منها وقد أكثر من النقل عن السلف الصالح فيما يتعلق بهذه المعيقات ليرتبط بهم القارئ ، ويأخذ من سيرهم منهجاً له ، فإنهم أهدى وأتقى .

ورحم الله ابن مجاهد -المقرئ- عندما قال له رجل : لم لا تختار لنفسك حرفاً؟ فقال : نحن إلى أن نُعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أخرج منا إلى اختياره^(١) .

(١) «السير» (١٥/٢٧٣) .

وختمتها بصفحات مفيدة حررها العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِيهَا جملة من الفوائد المتعلقة بآداب المعلمين والمتعلمين ، رأيت ضمها إلى هذه النبذة تكميلاً للفائدة وتعميماً للنفع .
والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

د . عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم

٢٥ رجب ١٤١٢ هـ

العائق الأول

طلب العلم لغير وجه الله تعالى

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم . ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم ، فهانوا عليهم» .

سمعت نبيكم ﷺ يقول : من جعل الهموم همًا واحدًا ، هم آخرته ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أي أوديتها هلك»^(٢) .

إن أحق ما اعتنى طالب العلم به معالجة النية ، وتعهدا بالإصلاح ، وحمايتها من الفساد .

(١) متفق على صحته .

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه» (١/٩٥) ، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/٤٤٣) عن ابن عمر نحوه ، وقال : حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي .

وذلك لأن العلم إنما اكتسب الفضل لكونه خالصاً لوجه الله تعالى ، أما إذا كان لغيره فلا فضيلة فيه ، بل هو فتنة ووبال وسوء عاقبة . وقد علم أن قبول الأعمال متوقف على إخلاصها وصلاحتها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ . . . ﴾ الآية [البينة : ٥] .

فإذا قصد الطالب بالعلم عرض الدنيا ، فقد عصي ربه ، وأتعب نفسه ، وباء بإثمه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له .

قال الحسن رحمه الله : «من طلب العلم ابتغاء الآخرة أدركها ، ومن طلب العلم ابتغاء الدنيا فهو حظه منه» .

وقال الزهري : «فذاك حظه منها»^(١) .

وأبلغ من ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» . يعني : ربحها^(٢) .

قال ابن عطاء رحمه الله فيمن تعلم لغير الله تعالى : «جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسبباً في تحصيل العقوبة لديه . ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، وفي الخبر : «إن الله

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص ٦٦) ، وانظر الدارمي (١/ ٧٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٨) ، وأبو داود في «سننه» (٤/ ٧١) ،

وابن ماجه في «سننه» (١/ ٩٢-٩٣) ، وصححه الحاكم (١/ ٨٥) وأقره الذهبي .

ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا والرفعة فيها كمن رفع العذرة بملعقة من الياقوت ، فما أشرف الوسيلة وما أحسن المتوسل إليه»^(١).

وقال سحنون : «كان ابن القاسم قلما يعرض لنا إلا وهو يقول : اتقوا الله فإن قليل هذا الأمر-يعني العلم- مع تقوى الله كثير ، وكثيره مع غير التقوى قليل»^(٢).

وقال يوسف بن الحسين : «سمعت ذا النون المصري يقول : كان العلماء يتواعظون بثلاث ، ويكتب بعضهم إلى بعض : من أحسن سريره ، أحسن الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه»^(٣).

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ : «أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر»^(٤).

وقال ابن المبارك أيضًا : «ما من شيء أفضل من طلب العلم لله ، وما من شيء أبغض إلى الله من طلب العلم لغير الله»^(٥).

وهنا أمر ينبغي التنبيه عليه ، ألا وهو : أن جماعة من السلف قالوا :

(١) «حاشية مسند أبي يعلى» (١١ / ٢٦١).

(٢) «السير» للذهبي (٩ / ١٢٢).

(٣) «السير» (١٩ / ١٤١).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ١١٨).

(٥) «الأدب الشرعية».

«كنا نطلب العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة»، و«طلبنا هذا الأمر وليس فيه نية ثم جاءت النية بعد»، و«من طلب العلم لغير الله يأبى عليه حتى يصيره إلى الله»^(١). ونحو هذه العبارات .

وقد شرح الذهبي رحمه الله هذه العبارات شرحاً مفيداً فقال على قول معمر بن راشد : كان يقال : إن الرجل ليطلب العلم لغير الله فيأبى العلم حتى يكون لله .

نعم يطلبه أولاً والحامل له حب العلم وحب إزالة الجهل وحب الوظائف ونحو ذلك ، ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه ولا صدق النية فإذا علم حاسب نفسه وخاف من وبال قصده فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم وعلامة ذلك أنه يقصر من الدعاوى وحب المناظرة ، ومن قصد التكثير بعلمه ويذري على نفسه فإن تكثر أو قال : أنا أعلم من فلان فبعداً له^(٢) . اهـ .

ومن ذلك ما يذكره بعض القصاص من أن رجلاً خطب امرأة ذات منصب وجمال فأبت لفقره وقلة حسبه ، ففكر بأي الأمرين ينالها بأالمال أم الحسب فاختار الحسب وطلب له العلم حتى أصبح ذا مكانة فبعثت إليه المرأة تعرض نفسها ، فقال : لا أوتر على العلم شيئاً ؛ وذلك لأن العلم أرشده إلى تصحيح النية والأعمال الصالحة فدخل في عداد ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٢-٢٣) .

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧) .

فتورع بترك امرأة كان طلب العلم لأجلها ، إعلامًا بصدق قصده
وسلامة مأربه .

ومما قلته في هذا المعنى من الأبيات :

إليكم يرفع المأسور شكوى

رجاء المن أو أخذ الفداء

فقد غلت مباسمكم يديه

إلى الأذقان من بعد العلاء

وقد أضحى صريعًا في هواكم

قعيد البيت من حر التنائي

براه الشوق والهجران منكم

وأدمى قلبه طول العناء

فسل القلب عنهم في رياض

تحل العبد أطباق السماء

وتسموا بالوضيع إلى المعالي

وتكسوا العري أثواب الثناء

وتبني للفتى ذكرًا مشيدًا

وتحيي رسمه طول البقاء

رياض بالمعارف قد تباغت

وفاق جماها جيد الظباء

إذا ما حلها العشاق يومًا
 تولّى عنهم عشق النساء
 وقد كانوا قديمًا في قيود
 يذل لفكها شوس الدهاء
 تحلت بالشيخ إذا تبدوا
 أناروا الكون من شرف الضياء
 شيخ بالمعارف قد تغذوا
 وسيط الحلم في مجرى الدماء
 لهم في العلم صولات وسبق
 وفي الأفعال جد في خفاء
 وفيها الطالبون إذا غشوها
 أثاروا المسك من حسن البهاء
 تراهم نحوها يسعون جهدًا
 رجاء المن أو أخذ الفداء

فالحذر الحذر أيها الطالب من الشرك في النية ، فإن الله تعالى يقول
 -كما في الحديث القدسي : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل
 عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٩/٤) ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . » .

وقد أجمع العارفون على أن استحكام الهلكة إنما يكون إذا خلى الله بين الإنسان ونفسه ، عندئذٍ تتخطفه الشياطين ، وتتشعب به المسالك ، وتكون النار أولى به .

قال حماد بن سلمة رَحِمَهُ اللهُ : «من طلب الحديث لغير الله مكر به»^(١) .

وإن صلاح النية في العلم لأكبر معين عليه ، كما قال أبو عبد الله الروذباري : «العلم موقوف على العمل ، والعمل موقوف على الإخلاص ، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله ﷻ»^(٢) .

وفي «سنن الدارمي» (١ / ٧١) عن إبراهيم النخعي أنه قال : «من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه» .

تنبيه : يستدل بعض الناس على أن العمل يورث العلم دون تعلم ، بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

قال في «تفسير المنار» نقلاً عن شيخه (٣ / ١٢٨) : «اشتهر على ألسنة المدعين للتصوف في معنى هاتين الجملتين : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أن التقوى تكون سبباً للعلم ، وبنوا على ذلك أن سلوك طريقهم ، وما يأتون به فيها من الرياضة ، وتلاوة الأوراد ، والأحزاب : تثمر لهم العلوم الإلهية . . بدون تعلم .

(١) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١ / ١٩٩) .

(٢) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (ص ٣٢) .

ويرد استدلالهم بالآية على ذلك من وجهين :

أحدهما : أنه لا يرضى به سيئويه -وله الحق في ذلك- لأن عطف (يعلمكم) على (اتقوا الله) ينافي أن يكون جزاء له ، ومرتباً عليه ؛ لأن العطف يقتضي المغايرة . . .

الثاني : أن قولهم هذا عبارة عن جعل المسبب سبباً والفرع أصلاً ، والنتيجة مقدمة .

فإن المعروف المعقول أن العلم هو الذي يثمر التقوى ، فلا تقوى بلا علم ، فالعلم هو الأصل الأول وعليه المعول . . . » . اهـ .

وهذا كلام جيد ويضاف إليه إيضاحاً : أن العمل يكسب القلب قوة إيمانية ، فيستوعب من العلوم ، ويدرك من الفوائد ، ما لا يدركه من تأخر عن هذه الرتبة . وهذا مشاهد بالعيان ومدرك بالحس .

أما من تعبد لله وترك العلم ، وقال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ .

فهو جاهل لا تجاريه الرعاع في جهله ، والله الحافظ .

العائق الثاني

ترك العمل

قال سفيان الثوري رحمته الله : «إنما يتعلم العلم ليتقى الله به»^(١) . اهـ .

فالغاية من تعلم العلم الشرعي ، العمل به والاجتهاد في تطبيقه ، هذا عند أولي الألباب الذين أراد الله بهم خيراً في الدين والدنيا ، ومقولة سفيان هذه عنوان يجب ألا يعزب عن بصر وبصيرة طلاب العلم ، وهي مأخوذة من نصوص الشريعة المطهرة .

فقد أخرج الترمذي عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه»^(٢) .

وأخرج الخطيب نحوه وفيه : «وعن علمه ماذا عمل فيه»^(٣) .

وفيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : «لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً ، ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً» .

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٦٢) .

(٢) رواه الترمذي في «سننه» (٤/٦١٢) وقال حديث حسن صحيح .

(٣) «اقتضاء العلم العمل» .

وفيه عن علي عليه السلام أنه قال : «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل» .

وعن الفضيل بن عياض أنه قال : «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به ، فإذا عمل به كان عالماً» .

ويقول حبيب بن حجر : «كان يقال : ما أحسن الإيمان بزينة العلم ، وأحسن العلم بزينة العمل ، وأحسن العمل بزينة الرفق ، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من علم إلى حلم»^(١) .

العمل بالعلم مدعاة لحفظه وثباته ، كما أن عدم العمل مدعاة لضياح العلم ونسيانه ، ولذلك قال الشعبي رضي الله عنه : «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به ، وكنا نستعين على طلبه بالصوم»^(٢) .

وقال الثوري رضي الله عنه : «قل لبعض الحكماء : ما لكم أطلب الناس للعلم؟ قال : لأننا أعمل الناس به»^(٣) .

و ضد ذلك يذهب بالعلم ويورث النسيان ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «إني لأحسب العبد ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها» .

وقد كان دأب السلف الصالح العمل بالعلم ، وبذلك حازوا

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤٧٠) ، والدينوري في «المجالسة» (٢/ ٥٧٩) .

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١١/ ٢) ، ونحوه عن وكيع كما في «الجامع» (١٣٢/ ٢) .

(٣) رواه أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري في «المجالسة» (٢/ ٥١٣) .

قصبات السبق ، وبورك في علمهم ؛ ولذا قال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : «حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً» .

وترك العمل بالعلم على قسمين :

الأول : ترك الائتثار بالواجبات الشرعية ، وترك الانتهاء عن المحرمات الشرعية فهذا كبيرة من الكبائر ، وعليه تحمل الآيات والأحاديث المتوقعة من ترك العمل بالعلم .

القسم الثاني : ترك المستحبات ، وترك اجتناب المكروهات فهذا قد يذم ، لكن لا يدخل في أحاديث الوعيد ، إلا أن العالم وطالب العلم ينبغي لهما المحافظة على السنن ، واجتناب المكروهات ^(١) . والله أعلم .

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ : «والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به ، ففاته لذات الدنيا ، وخيرات الآخرة ، فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه» ^(٢) . اهـ .

(١) بسطت الكلام على هذا القسم في كتابي «ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية» .

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٤٤) .

العائق الثالث

الاعتماد على الكتب دون العلماء

يرى بعض الطلبة من نفسه قدرة على أخذ العلم من الكتب دون الرجوع إلى العلماء في توضيح عباراتها ، وحل مشكلاتها وهذه الثقة بالنفس داء طالما رأينا صرعاة منبوزين ، وعن عداد أهل العلم مبعدين ، ما أكثر خطأهم ، وأبعد نجعتهم وأشنع تناقضهم .

قال الإمام الشافعي رحمته الله تعالى : «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام» .

وكان بعضهم يقول : «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة» أي : الذين تعلموا من الصحف^(١) .

قال الفقيه سليمان بن موسى : «كان يقال : لا تأخذوا القرآن من المصحفين ، ولا العلم من الصحفيين» .

وقال الإمام سعيد بن عبد العزيز التنوخي - وكان يساوي بالأوزاعي : «كان يقال : لا تحملوا العلم عن صحفي ، ولا تأخذوا القرآن من مصحفي»^(٢) .

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٨٧) .

(٢) «تصحيقات المحدثين» للعسكري (١/ ٦-٧) .

وقديماً قيل : «من كان شيخه كتابه ، كان خطؤه أكثر من صوابه» .

ولقد أحسن أبو حيان النحوي حينما قال :

يظن الغُمر أن الكتب تجدي

أخافهم لإدراك العلوم

وما يدري الجهول بأن فيها

غوامض حيرت عقل الفهيم

إذا رمت العلوم بغير شيخ

ضللت عن الصراط المستقيم

وتلتبس الأمور عليك حتى

تكون أضل من توما الحكيم

وقد شرح العلماء المعنى الذي من أجله ألزم الطالب أخذ العلم

من أفواه العلماء ، فمن ذلك قول ابن بطلان رَحِمَهُ اللهُ : «يوجد في الكتاب

أشياء تصد عن العلم وهي معدومة عند المعلم وهي : التصحيف العارض

من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ والغلط بروغان البصر . . . وقلة الخبرة

بالإعراب ، أو فساد الموجود منه ، وإصلاح الكتاب ، وكتابة ما لا يقرأ ،

وقراءة ما لا يكتب ، ومذهب صاحب الكتاب ، وسقم النسخ ، ورداءة

النقل ، وإدماج القارئ مواضع المقاطع ، وخلط مبادئ التعليم ، وذكر

ألفاظٍ مصطلح عليها في تلك الصناعة . . . فهذه كلها معوقة عن العلم ،

وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم .

إذا كان الأمر على هذه الصورة ، فالقراءة على العلماء أجدي وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه ، وهو ما أردنا بيانه . اهـ .

وقد ذكر قبل هذا الوجه خمسة أوجه في بيان العلل التي من أجلها صار التعلم من أفواه الرجال أفضل من التعلم من الصحف ، فلتنظر في «شرح إحياء علوم الدين»^(١) .

* * *

(١) «شرح إحياء علوم الدين» للزبيدي (١/٦٦) .

العائق الرابع

أخذ العلم عن الأصاغر

لقد فشلت ظاهرة أخذ العلم عن صغار الأسنان بين طلاب العلم في هذا الزمن .

وهذه الظاهرة - في الحقيقة - داء عضال ، ومرض مزمن يعيق الطالب عن مراده ، ويعوج به عن الطريق السليم الموصل إلى العلم .

وذلك لأن أخذ العلم عن صغار الأسنان ، الذين لم ترسخ قدمهم في العلم ، ولم تشب لحاهم فيه ، مع وجود من هو أكبر منهم سنًا ، وأرسخ قدمًا ، يضعف أساس المبتدئ ، ويحرمه الاستفادة من خبرة العلماء الكبار ، واكتساب أخلاقهم التي قومها العلم والزمن . . . إلى غير ذلك من التعليقات التي يوحى بها أثر ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول : «ولا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم ، وعن أمثائهم ، وعلمائهم ، فإذا أخذوه عن صغارهم ، وشرارهم هلكوا» .

وثبت الحديث عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر» .

وقد اختلف الناس في تفسير «الصغار» هنا على أقوال ذكرها ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٥٧) ، والشاطبي في «الاعتصام» (٢/ ٩٣) .

وقد ذهب ابن قتيبة رحمته الله تعالى إلى أن الصغار هم صغار الأسنان ، فقال على أثر ابن مسعود الأنف الذكر : «يريد لا يزال الناس بخير ما كان علمائهم المشايخ ، ولم يكن علمائهم الأحداث ؛ لأن الشيخ قد زالت عنه متعة الشباب ، وحِدته وعجلته ، وسفهه ، واستصحب التجربة والخبرة ، ولا يدخل عليه في علمه الشبهة ، ولا يغلب عليه الهوى ، ولا يميل به الطمع ، ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث ، فمع السن : الوقار ، والجلالة ، والهيبة .

والحدث قد تدخل عليه هذه الأمور التي أمنت على الشيخ ، فإذا دخلت عليه ، وأفقتى هلك وأهلك»^(١) . اهـ .

وقد روى ابن عبد البر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «قد علمت متى صلاح الناس ، ومتى فسادهم : إذا جاء الفقه من قبل الصغير استعصى عليه الكبير ، وإذا جاء الفقه من الكبير تابعه الصغير فاهتديا» .

وروى ابن عبد البر -أيضاً- عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم ، فإن كان العلم في صغاركم سفه الصغير الكبير» .

ففي هذين الأثرين تعليل لعدم الأخذ عن «الصغير» آخر غير الذي ذكره ابن قتيبة . وهو : خشية رد العلم إذا جاء من الصغير .

(١) «نصيحة أهل الحديث» للخطيب البغدادي (ص ١٦) .

وعلى كل ، فإن لفظة «الصغير» عامة تتناول الصغير حسًا ومعنى .

وهذا الحكم ليس على إطلاقه في «صغير السن» ؛ فقد أفتى ودرس جماعة من الصحابة والتابعين في صغرهم بحضرة الأكابر ، إلا أن هؤلاء يندر وجود مثلهم فيمن بعدهم ، فإن وجدوا وعلم صلاحهم ، وسبر علمهم فظهرت رصانته ، ولم يوجد من الكبار أحد يؤخذ عنه العلوم التي معهم ، وأمنت الفتنة ، فليؤخذ عنهم .

قال الحجاج بن أرطاة رَحِمَهُ اللهُ : «كانوا يكرهون أن يحدث الرجل حتى يرى الشيب في لحيته»^(١) .

وليس المراد أن يهجر علم الحدث مع وجود الأكابر . . كلا ، وإنما المراد إنزال الناس منازلهم ، فحق الحدث النابغ أن ينتفع به في المدارس والمذاكرة ، والمباحثة . . . أما أن يصدر للفتوى ، ويكتب إليه بالأسئلة ، فلا وألف لا ؛ لأن ذلك قتل له ، وفتنة ، وتغريب .

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ : «لو رأيت رجلاً اجتمع الناس حوله لقلت : هذا مجنون ، من الذي اجتمع الناس حوله لا يجب أن يجود كلامه لهم؟!» .

وقال أيضًا : «بلغني أن العلماء فيما مضى كانوا إذا تعلموا عملوا ، وإذا عملوا شغلوا ، وإذا شغلوا فقدوا وإذا فقدوا طلبوا ، فإذا طلبوا هربوا»^(٢) .

(١) «أخبار القضاة» لوكيع (٢/ ٥٤) .

(٢) «السير» (٨/ ٤٣٤) .

فيا أيها الطلاب إن أردتم العلم من منابعه فهاؤم العلماء الكبار الذين شابت لحاهم ، ونحلت جسومهم وذبلت قواهم في العلم والتعليم ، الزمومهم قبل أن تفقدوهم ، واستخرجوا كنوزهم قبل أن توارى معهم ، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر .

تنبيه : في هذا الزمان اختل معيار كثير من العامة في تقييم العلماء ، فجعلوا كل من وعظ موعظة بليغة ، أو ألقى محاضرات هادفة ، أو خطب الجمعة مرتجلاً . . . عالماً يرجع إليه في الإفتاء ويؤخذ العلم عنه .

وهذه رزية مؤلمة ، وظاهرة مزرية ، تطاير شررها وعم ضررها ؛ إذ هي في إسناد العلم إلى غير أهله ، وإذا وسد الأمر إلى غير أهله فانظر الساعة .

فليحذر الطالب من أخذ العلم عن هؤلاء ، إلا إذا كانوا من أهل العلم المعروفين ، فما كل من أجاد التعبير كان عالماً ولا كل من حرف وجوه الناس إليه بالوقية في ولادة أمور المسلمين ، أو بذكر النسب لوفيات الأيدز ونحوها يكون عالماً .

وليس معنى ما تقدم - كما يفهم البعض - عدم الاستماع إليهم ، أو الانتفاع بمواعظهم ، كلا إنما المراد عدم أخذ العلم الشرعي عنهم وعدم رفعهم إلى منازل العلماء ، والله الموفق .

العائق الخامس

عدم التدرج في العلم

لا ترى أحدًا من العلماء ينازع في مبدأ «التدرج» ؛ لأنه الوسيلة الناجحة لأخذ العلم وفهمه .

وهذا مأخوذ من كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

قال الزبيدي نقلًا عن «الذريعة» في وظائف المتعلم : «يجب ألا يخوض في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بُلْعَتُهُ ، ويقضي منه حاجته ، فازدحام العلم في السمع مضلة الفهم» .

وعلى هذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] .

أي : لا يتجاوزون فنًا حتى يحكموه علمًا وعملاً ، فيجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال في الترتيب .

وكثير من الناس منعوا الوصول لتركهم الأصول ، وحقه أن

يكون قصده من كل علم يتحراه التبليغ به إلى ما فوقه ، حتى يبلغ النهاية»^(١) . اهـ .

والتدرج يكون في أمرين :

الأول : تدرج بين الفنون .

الثاني : تدرج في الفن الواحد .

وكلا الأمرين يخضع لاجتهاد المعلم وطبيعة المكان ؛ ولذا فإن إشارات العلماء في التدرج تختلف باختلاف مذاهبهم ، وأماكنهم ، وسأضع بين يدي القارئ نماذج من توجيهاتهم ليأخذ ما يلائمه ، بعد موافقة شيخه ومعلمه .

روى ابن المديني عن عبد الوهاب بن همام عن ابن جريج قال : «أتيت عطاء وأنا أريد هذا الشأن ، وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير . فقال لي ابن عمير : قرأت القرآن؟ قلت : لا . قال : فاذهب فاقرأه ، ثم اطلب العلم . فذهبت فغيرت زماناً ، حتى قرأت القرآن ، ثم جئت عطاء ، وعنده عبد الله فقال : قرأت الفريضة؟ قلت : لا . قال فتعلم الفريضة ، ثم اطلب العلم . قال فطلبت الفريضة ثم جئت . فقال : الآن ، فاطلب العلم»^(٢) .

(١) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤) .

(٢) «السير» (٦/ ٣٢٧) .

وقال أبو العيناء : أتيت عبد الله بن داود ، فقال : ما جاء بك ؟ قلت : الحديث . قال : اذهب فتحفظ القرآن . قلت : قد حفظت القرآن . قال : اقرأ ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ . . . [يونس : ٧١] .

فقرأت العشر حتى أنفذته . فقال لي : اذهب الآن فتعلم الفرائض . قلت : قد تعلمت الصلابة والجد ، والكبر . قال : فأيا أقرب إليك ابن أخيك ، أو عمك ؟ قلت : ابن أخي . قال : ولم ؟ قلت : لأن أخي من أُمِّي وعمي من جدي . قال : اذهب الآن فتعلم العربية . قال : قد علمتها قبل هذين . قال : فلم قال عمر - يعني حين طعن - يا لله وللمسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟ قلت : فتح تلك اللام على الدعاء ، وكسر هذه على الاستغاثة ، والانتصار .

فقال : لو حدثت أحداً لحدثتك ^(١) . اهـ .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمته الله تعالى ^(٢) : « طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها ، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل ، ومن تعداه مجتهداً زل .

فأول العلم حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه ، وكل ما يعين على فهمه ، فواجب طلبه . ولا أقول : إن حفظه كله فرض ، ولكن أقول : إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً ليس من باب الفرض .

(١) «السير» (٩/٣٥١) .

(٢) «الجامع» (٢/١٦٦) .

فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب ، كان له ذلك عونًا كبيرًا على مراده منه ، ومن سنن رسول الله ﷺ .

ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك وهو أمر قريب على من قرب به الله عليه .

ثم ينظر في السنن الماثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ فيها يصل الطالب إلى مراد الله جل وعز في كتابه ، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا .

وفي سير رسول الله ﷺ تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن .

ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ . . . ومما يستعان به على فهم الحديث العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها واستعارتها ومجازها وعموم لفظ مخاطبيها وخصوصه وسائر مذهبها لمن قدر ، فهو شيء لا يستغنى عنه ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة والفرائض واللعن -يعني النحو- كما يتعلم القرآن . . . » .

ثم قال ابن عبد البر رحمته الله تعالى (٢ / ١٧٢) :

«فعليك يا أخي بحفظ الأصول ، والعناية بها .

واعلم أن من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن ، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عونًا له على اجتهاده ، ومفتاحًا لطرائق

النظر وتفسيرًا لجمل السنن المحتملة للمعاني ، ولم يقلد أحدًا منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها على كل حال دون نظر ، ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدى بهم في البحث والتفهم والنظر وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوا عليه وحمدهم على صوابهم - الذي هو أكثر أقوالهم - ولم يبرئهم من الزلل ، كما لم يبرئوا أنفسهم منه .

فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح ، وهو المصيب لحظه والمعاين لرشده والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدى صحابته رضي الله عنهم . . . إلخ . اهـ .

وقال ابن الجوزي رحمته الله تعالى : «وقد علم قصر العمر ، وكثرة العلم ، فيبدأ - أي الطالب - بالقرآن وحفظه ، وينظر في تفسيره نظرًا متوسطًا لا يخفى عليك بذلك منه شيء .

وإن صح له قراءة القراءات السبعة ، وأشياء من النحو وكتب اللغة ، وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل : كالصحيح والمسانيد والسنن ، ومن حيث علم الحديث : كمعرفة الضعفاء والأسماء ، فلينظر في أصول ذلك .

وقد رتبت العلماء من ذلك ما يستغني به الطالب عن التعب . ولينظر في التواريخ ليعرف ما لا يستغني عنه كنسب رسول الله ﷺ ، وأقاربه ، وأزواجه ، وما جرى له ، ثم ليقبل على الفقه فلينظر في المذهب والخلاف وليكن اعتماده على مسائل الخلاف ، فلينظر في المسألة وما تحتوي عليه ، فيطلبه من مظانه ، كتفسير آية ، وحديث ، وكلمة لغة .

ويتشاغل بأصول الفقه ، وبالفرائض وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم»^(١) . اهـ .

فهذه شذرات من توجيهات العلماء -رحمهم الله تعالى- لطالب العلم وهى خلاصة تجاربهم في طريق التعلم ، أهدوها لنا حفاظاً على وقتنا ورعاية لتأسيسنا على النهج القويم ، فلا نَحْذُ عن طريقهم لئلا يقع الخلل في معلوماتنا ، فتخوننا ونحن أحوج ما نكون إليها .
من لم يشافه عالماً بأصوله

فيقينه في المشكلات ظنون

ورحم الله ابن عبد البر إذ نعى طلاب العلم في زمنه وعاب عليهم خروجهم عن طريقة التعلم المعروفة عند السلف ، فقال : «واعلم -رحمك الله- أن طلب العلم في زماننا هذا ، وفي بلدنا ، قد حاد أهله عن طريق سلفهم ، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم»^(٢) . اهـ .

وقد رتب ابن الجوزي جدولاً للطالب يبلغ به المنتهى ، فقال : «وأول ما ينبغي أن يكلف -أي طالب العلم في صباه- حفظ القرآن متقناً ، فإنه يثبت ويختلط باللحم والدم ، ثم مقدمة في النحو يعرف بها اللحن ، ثم الفقه مذهباً وخلافاً ، وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن»^(٣) . اهـ .

(١) من «صيد الخاطر» (ص ١٦٩) .

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/١٦٩) .

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٢٤٤) .

ويضاف إلى ذلك النظر في متون الحديث ومصطلحه ؛ ليكون الفقه مبنياً على القرآن ، وما صح عن الرسول ﷺ فيبلغ صاحبه الذروة في الفضائل .

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أما العلم النافع فهو : العلم المزكي للقلوب والأرواح ، المثمر لسعادة الدارين ، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت ، والموضع الذي فيه الإنسان . وتعين ما يشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان .

والحالة التقريبية في نظرنا هنا : أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به ، فإن تعذر أو قصر عليه حفظه لفظاً ، فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه ، ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه .

فلو حفظ طالب العلم «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية . و«ثلاثة الأصول» وكتاب «التوحيد» للشيخ محمد .

وفي الفقه «مختصر الدليل»^(١) و«مختصر المقنع»^(٢) .

وفي الحديث «بلوغ المرام» .

وفي النحو «الآجرومية» .

(١) «دليل الطالب» لمرعي الكرمي .

(٢) «زاد المستقنع» للحجاوي .

واجتهد في فهم هذه المتون ، وراجع عليها ما تيسر من شروحيها ،
أو كتب فيها فإنها كالشروح لها ؛ لأن طالب العلم إذا حفظ الأصول
وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها الصغار
والكبار . ومن ضيع الأصول حرم الوصول .

فمن حرص على هذه العلوم النافعة ، واستعان بالله ، أعانه وبارك
له في علمه ، وطريقه الذي سلكه . ومن سلك في طلبه للعلم غير
الطريقة النافعة فاتت عليه الأوقات ، ولم يدرك إلا العناء ، كما هو
معروف بالمشاهدة والتجربة^(١) . اهـ .

فهذا اقتراح مفصل من الشيخ رحمته الله تعالى حري بالاعتناء وقد
استقرينا تراجم علمائنا فما منهم من خرج عن هذا السبيل ، وبذلك
حازوا قصبات السبق .

وليكن معلوماً لدى طالب العلم أن حثنا على حفظ مختصر في
الفقه ليس دعوة إلى التقليد المذموم ، وإنما هو لفوائد شتى ، منها :
امتلاك الطالب أساساً قوياً في هذه المادة الشاهقة الارتفاع وحصر
ذهنه في المسائل الموجودة في هذا المختصر ؛ لئلا تختلط عليه المسائل فلا
يستطيع التمييز بين أحكامها والسعي في تدرجه إلى مرحلة الاجتهاد
درجة درجة ، وأول السلم هذه المختصرات .

وليس معنى حفظها العمل بكل ما فيها ؛ إذ لا بد من معلم تقرأ

(١) «الفتاوي السعدية» (ص ٣٠-٣١) .

عليه ، فيوضح غامضها ويحل مشكلها ، ويستدل لها ويبين الراجح من المرجوح فيها .

والدخول في هذا المبحث مما يستدعي إطالة لا نريدها هنا ، إلا أنني أنقل أحرفاً عن المصنف الكبير المربي الفاضل العلامة الذهبي رحمته الله إذ جعل لكل إنسان منزلته ، فقال : من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له بذلك عدة من الأئمة لم يسغ له أن يقلد .

كما أن الفقيه المبتدئ ، والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً ، فكيف يجتهد وما الذي يقول؟ وعلام يبني؟ وكيف يطير ولما يُرِش؟

والقسم الثالث : الفقيه المنتهي ، اليقظ الفهم المحدث ، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع ، وكتاباً في قواعد الأصول ، وقرأ النحو وشارك في الفضائل ، مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره ، وقوة مناظرته فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد ، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة ، فمتى وضح له الحق في مسألة ، وثبت فيها النص ، وعمل به أحد الأئمة الأعلام . . . فليتبع فيها الحق ، ولا يسلك الرخص ، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد^(١) . اهـ .

فرحم الله امرأً عرف قدر نفسه ، ولم يرفعها فوق منزلتها ، وأخذ العلم على طريقة سلفه . والله المستعان .

(١) «السير» (١٨ / ١٩١) .

العائق السادس

الغرور والعجب والكبر

معصية الله تعالى عاتقة عن نيل العلم الشرعي ؛ لأنه نور الله يقذفه في أفئدة من شاء من عباده ، ولا يجتمع في قلب نور وظلمة ؛ ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : «إني لأحسب الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنوب يعملها»^(١) .

ورحم الله الشافعي حيث قال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يهدى لعاصي

وإن أقبح ما تلبس به طالب العلم من المعاصي - وكلها قبيح - التكبر والتعاضم والغرور ، فيزدري هذا ويرفع عن هذا ، ويتبختر في المشي ، ويتشدد في الكلام ، إلى غير ذلك من صفات العجب بالنفس ، التي نهى الله تعالى عنها في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] .

المرح : التبختر . وقال تعالى : ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

(١) «الجامع» (١/١٩٦) .

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
**«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل رأسه ، يخال في مشيته ؛
 إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» .**

قال ابن الجوزي رحمته الله : «أفضل الأشياء التزيد من العلم ، فإنه
 من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه ، فصار تعظيمه لنفسه
 مانعاً من الاستفادة .

قال : غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس
 حبس عن إدراك الصواب نعوذ بالله من ذلك»^(١) . اهـ .

وصدق علي بن ثابت حينما قال :

العلم آفته الإعجاب والغضب

والمال آفته التبذير والنهب

قال أيوب السخيتاني : «ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه
 تواضعاً لله» .

وقالوا : المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً ، كما أن المكان
 المنخفض أكثر البقاع ماء .

وقيل لحكيم : ما النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها؟ قال :
 التواضع . قيل له : فما البلاء الذي لا يرحم عليه صاحبه؟ قال :
 العجب^(٢) .

(١) من «صيد الخاطر» (ص ١١١) .

(٢) «الجامع» (١/ ١٤٢) .

فليحذر الطالب من هذه الصفات الذميمة التي يمقتها الله ويمقتها المؤمنون ، فإن من تواضع لله رفعه ، وضده : من لم يتواضع لله سفل .
وإذا حدثته نفسه بشيء من ذلك فليذكر ماله ومصيره ، وليعلم أن هناك من هو أصغر منه سنًا ، وأكبر منه علمًا .

ولقد بلينا في هذا الزمن بشر ذمّة قليلة -ولله الحمد- يقرءون كتابًا أو كتابين ، ويحفظون مسألة أو مسألتين ، ثم بعد يوم أو يومين - من أعمارهم في الطلب- يصبحون مجتهدين ، وليتهم يقتصرون على هذا الخيال الكاسد بل يستصغرون غيرهم من العلماء ، بله طلبة العلم والدعاة ، ويرون لأنفسهم مكانًا عاليًا لا يصل إليه أحد ، يظهر ذلك على ملابسهم ، ومشيههم وكلامهم ، فإن الله وإنا إليه راجعون ، ما أعظم ضررهم! وأقل نفعهم! وأمتن جهلهم! نسأل الله تعالى أن يهديهم سواء السبيل .

وإلى هؤلاء أسوق فصلًا نفيسًا لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ حيث يقول : « انتقدت على أكثر العلماء والزهاد : أنهم يبطنون الكبر ، فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضًا فقيرًا يرى نفسه خيرًا منه . وقلّ من رأى إلا وهو يرى نفسه ، والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا رآها! إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العباد . . . -إلى أن قال- ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على شك .

فالذي يحذر منه الإعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة والمؤمن الحق لا يزال يحتقر نفسه .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رحمته الله إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ؟ فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك ، أحب إلي من أن أرى نفسي أهلاً لذلك»^(١) . اهـ .

قال في «تهذيب الإحياء» : «والكبر بالعلم ، هو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعدها عن قبول العلاج ، إلا بشدة شديدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما .

ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل غيره من العالم ، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش ؛ إذ لم يقض نعمة الله عليه في العلم .

الأمر الثاني : أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله ﷻ وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله ﷻ بغضاً^(٢) ؛ لحديث أبي هريرة رحمته الله قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى : العز إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن ينازعني عذبت»^(٣) .

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢٨٢) .

(٢) «تهذيب الإحياء» (٢/ ١٣٦) .

(٣) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ؟
قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » ^(١) .
غمط الناس : احتقارهم .

* * *

(١) رواه مسلم .

العائق السابع

استعجال الثمر

يظن بعض الطلبة أن العلم لقمة سائغة أو جرعة عذبة ، سرعان ما تظهر نتائجها ، وتتبين فوائدها .

فيؤمل في قرارة نفسه أنه بعد مضي سنة أو أكثر أو أقل —من عمره في الطلب— سيصبح عالماً جهبذاً ، لا يدرك شأوه ، ولا يشق غباره .

وهذه نظرة خاطئة وتصور فاسد ، وأمل كاسد أضراره وخيمة ، ومفاسده عظيمة ؛ إذ يفضي بصاحبه إلى ما لا تحمد عقباه ، من القول على الله بغير علم ، والثقة العمياء بالنفس ، وحب العلو والتصدر . . . وينتهي مطافه بين هذه الأشياء إلى هجر الانتساب للعلم وأهله .

ولقد أصاب المأمون عندما قال —متهكماً بهذا الضرب من الطلبة : «يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول : أنا من أهل الحديث»^(١) .

والناظر إلى حال السلف يرى عجباً من صبرهم على مرارة التحصيل ، وطول الجادة ، لا يفترون ولا يتقاعسون ، ولا يستكبرون ، شعارهم : «العلم من المهد إلى اللحد» . . . «العلم من المحبرة إلى المقبرة» .

قال الإمام ابن المديني : «قل للشعبي : من أين لك هذا العلم

(١) «السير» (١٠/٨٧٦) .

كله؟ قال : «بنفي الاعتماد ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الجهاد ، وبكور كبكور الغراب»^(١) .

وقال الإمام الشافعي : «لا يبلغ في هذا الشأن رجل حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل شيء»^(٢) .

وقال ابن حمزة : «قال لي يعقوب بن سفيان ، الحافظ الإمام : أقمت في الرحلة ثلاثين سنة»^(٣) .

وقال يحيى بن أبي كثير : «لا يستطاع العلم براحة الجسد»^(٤) .

وقال ابن الحداد المالكي : «ما للعلم وملائمة المضاجع»^(٥) .

فعلى طالب العلم أن يتأسى بهؤلاء الأئمة ، وأن يحذوا حذوهم ، حتى ينال مناه ، ويدرك بغيته ، فإن منهجهم سليم ، وطريقهم قويم وما حصل لهم ما حصل من ذكرٍ حسن ، ونفع مستمر للمسلمين إلا بالصبر والمثابرة ، وازدراء كل ما يبذل من مالٍ ، ووقتٍ في سبيل العلم والمعرفة .

وختامًا : أذكر محاورة بين اثنين ، تبين قيمة العلم ومكانته العالية

(١) «التذكرة» للذهبي (ترجمة الشعبي عامر بن شراحيل) .

(٢) «السير» (٨٩ / ١٠) .

(٣) «التذكرة» للذهبي (ترجمة مكحول) .

(٤) «الجامع» (٩١ / ١) .

(٥) «السير» (٢٠٦ / ١٤) .

وأنه لا يحصل إلا لمن بذل فيه كل شيء ، على حد قولهم : « أعط العلم
كلك يعطيك بعضه » .

قال رجل لآخر : بم أدركت العلم ؟

قال : طلبته فوجدته بعيد المراد ، لا يصاد بالسهم ، ولا يرى في
المنام ، ولا يورث عن الآباء والأعمام .

فتوسلت إليه بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، وإدمان السهر ،
وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ومتابعة السفر ، وركوب الخطر : فوجدته
شيئاً لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس ، ولا يسقى إلا
بالدرس .

أرأيت من يشغل نهاره بالجمع وليله بالجماع ، هل يخرج من ذلك
فقيهاً؟ كلا والله .

إن العلم لا يحصل إلا لمن اعتضد الدفاتر ، وحمل المحابر ، وقطع
القفار ، وواصل في الطلب الليل والنهار^(١) .

ولعل في هذه المحاورة الظريفة ما يزيل الصورة المترسبة في أذهان
بعض الطلبة : من أن العلم ينال في مدة وجيزة ، وفترة قصيرة ، فيواصلوا
جهودهم ، ويحتقروا مبذولهم ، في طريق العلم والتعلم ، حتى يفتح الله
عليهم أبواب المعرفة والعلم فيصبحوا قادة في العلم ، أئمة في الهدى .

(١) ينظر : « مقامات بديع الزمان » (المقامات العلمية) والزيادات التي هنا من بعض
شيوخنا .

العائق الثامن

دنو الهمة

نرى بين صفوف طلبة العلم أناسًا يمتلكون مواهب جليلة ، وقدرات هائلة ، تؤهلهم للزعامة العلمية ، إلا أن دنو همتهم يمحق مواهبهم ، ويزيل بهاء نبوغهم ، فتجدهم يقنعون بيسير المعلومات ، ويأنفون من القراءة والمطالعة ، ويتشاغلون عن الطلب والتحصيل .

وهؤلاء سرعان ما تنزع ملكية قدراتهم ، وتسلب بركة أوقاتهم . ذلك بأن كفر النعمة مؤذن برحيلها ، كما أن شكرها مؤذن بمزيدها .

قال الفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين : رجل يطلب العلم ولا فهم له ، ورجل يفهم ولا يطلبه . وإني لأعجب ممن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم »^(١) .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعليقًا على قول أبي الطيب

المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيبًا

كنقص القادرين على التمام

«ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصور

للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض .

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٠٣) .

ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد ، رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض والسيرة الجميلة عند الحكماء : خروج النفس إلى غاية كما لها الممكن لها في العلم والعمل .

قال : وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها ؛ فإن القنوع حالة الأراذل .

فكن رجلاً رجله في الثرى

وهامة همته في الثرى

ولو أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد فافعل ، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل ، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها .

واعلم أنك في ميدان سباقٍ والأوقات تنتهب ، فلا تخلد إلى كسل ، فما فات ما فات إلا بالكسل ، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم^(١) . اهـ .

فيا من أنس من نفسه علامة النبوغ والذكاء لا تبغ عن العلم بدلاً ، ولا تشتغل بسواه أبداً ، فإن أبیت فأجبر الله عزاءك في نفسك ، وأعظم أجر المسلمين فيك ، ما أشد خسارتك وأعظم مصيبتك !

دع عنك ذكر الهوى والمولعين

وانهض إلى منزل عال به الدرر

تسلو بمربئه عن كل غالية

وعن نعيم لدنيا صفوه كدر

(١) من «صيد الخاطر» (ص ١٥٩-١٦١) .

وعن نديم به يلهو مجالسه
وعن رياض كساه النور والزهر
انهض إلى العلم في جد بلا كسل
نهوض عبد إلى الخيرات يبتدر
واصبر على نيله صبر المجد له
فليس يدركه من ليس يصطبر^(١)

وإن من أنفع الأمور التي تعين على علو الهمة : النظر في سير
السلف عليهم السلام فإن أحوالهم غاية الكمال علماً وعملاً ، فإذا ما رآها
الطالب ازدري نفسه وقل عمله في عينه ، فسعى للحقوق بالقوم ، والتشبه
بهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم .

قال ابن الجوزي : « فالله الله ، عليكم بملاحظة سير السلف ،
ومطالعة تصانيفهم ، وأخبارهم ، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم .
قال : وليكثر من المطالعة ، فإنه يرى من علوم القوم ، وعلو هممهم
ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد »^(٢) . اهـ .

(١) من قصيدة للشيخ عبد الرحمن السعدي رحمته الله «الفتاوى» (ص ٦٤٧) .

(٢) بتصرف من «صيد الخاطر» (ص ٤٤٠) .

العائق التاسع والعاشر

التسويق والتمني

التسويق : التأخير والمدافعة^(١) يقال : سَوَّف الأمر ، إذا قال : سوف أفعل^(٢) .

ويطلق التسويق على الأمانى . يقال : فلان يقتات السوف : أي يعيش بالأمانى . قال الكميت :

وكان السوف للفتيان قوًّا

تعيش به وهنت الرقوب^(٢)

والتمني : حديث النفس بما يكون مستقبلًا وما لا يكون -أي مستحيلًا- وقيل : إرادة تتعلق بالمستقبل^(٣) .

والتسويق والتمني داءان خطيران ، يفسدان القلب والوقت ، ويعرجان بالمرء إلى عالم الخيال .

أما التسويق : فصفة بليد الحس ، عديم المبالاة . كلما همت نفسه بخير ، عاقها بـ «سوف» و«سأعمل» حتى يفجأه الموت فيقول : ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون : ١٠] .

(١) «مجمّل اللغة» لابن فارس (٢/ ٤٧٩) .

(٢) «أساس البلاغة» (ص ٢٢٠) ، ط . دار المعرفة - بيروت .

(٣) «فيض القدير» للمناوي (١/ ٣١٩) .

فعلى طالب العلم أن يتنزه عن هذه المنقصة ، ويبادر بالأعمال ،
عملاً بقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

فهو أعرف الناس بقيمة الوقت ، وأولاهم بالانتفاع به كله .

وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنه : «كن في الدنيا كأنك
غريب أو عابر سبيل» .

وكان ابن عمر يقول : «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا
أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك
لموتك»^(١) .

قال ابن الجوزي : «ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لا موت
فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم ، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع ،
وزيادتها على قدر زيادة الجدها هنا : انتهب هذا الزمان ، فلم ينم إلا
ضرورة ، ولم يغفل عن عمارة لحظة»^(٢) . اهـ .

أما التمني : فمنه ممدوح ، ومنه مذموم .

أما الممدوح : فهو أن يتمنى فعل الخير المندوب ولا يستطيعه ،

(١) رواه البخاري (١١/١٩٩) .

(٢) من «صيد الخاطر» (ص ٣٢٣) .

وله ثلاثة شروط :

الأول : العزم على الفعل متى ما قدر عليه .

الثاني : كونه في حدود الشرعيات ، كتمني بناء مسجد ونحوه .

الثالث : ألا يكون ديدن الإنسان^(١) .

وأما المذموم : فقد عبر عنه ابن القيم رحمته الله تعالى في شرح كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي عن مفسدات القلب : فقال :

«المفسد الثاني من مفسدات القلب ركوبه بحر التمني ، وهو بحر لا ساحل له وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم ، كما قيل :

إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً

إن المنى رأس أموال المفاليس

وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان ، وخيالات المحال والبهتان .
فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة ، والخيالات الباطلة ، تتلاعب براكبه ،
كما تتلاعب الكلاب بالجيفة . وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيصة
سفلية ، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية بل اعتاضت عنها
بالأماني الدنية . . -قال- فيتمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه ، وقد
فاز بوصلها ، والتذ بالظفر بها ، فبينما هو على هذه الحال ؛ إذ استيقظ
فإذا يده والحصير^(٢) . اهـ .

(١) فصلت أدلة هذه الشروط في رسالة لي في التمني .

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤٥٦ - ٤٥٧) .

وما أحسن ما قال أبو تمام :

من كان مرعى عزمه وهمومه

روض الأمانى لم يزل مهزولا

وقد قيل لبعض الحكماء : من أسوء الناس حالاً؟ قال : من بعدت

همته ، واتسعت أمنيته ، وقصرت آلته ، وقلت مقدرته .

وقال آخر : تجنبوا الأمانى ، فإنها تذهب ببهجة ما خولتم ،

وتستصغرون بها نعمة الله عليكم^(١) .

فليتجنب الطالب هذا المرض ، وليحذر تمكنه منه ، فإنه كالسرطان

الفتاك ، قل من يبرأ منه .

فكم من صريع له لا يفيق من سباته ، ولا يفتت من قيوده ،

أعاذنا الله وإياكم منه ، وأشغلنا بالعمل الصالح عن الأمانى الكاذبة

والخيالات الكاسدة ، وأحلام اليقظة ، التي تضيع الوقت ، وتخفف

الميزان .

قال الشاعر :

تمنيت أن تمسى فقيهاً مناظراً

بغير عناء والجنون فنون

وهذه أبيات من قصيدة لي في هذا الموضوع :

وها لأيام الدراسة إنها

تكسو الفؤاد سعادة وتنفس

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٠٨) .

والمرء في زمن الصبا متوثب
خيلاً تغير على الخيال وتنهس
حتى إذا بلغ المدى وتكشفت
أحلامه عن سوء لا تحبس
وجد المعيشة صعبة لا تقتنى
بالأمنيات ولا الزمان يؤنس
فاختر لنفسك غير أودية المنى
فالعطب في وادي المنى يترأس

* * *

شذرات من كلام العلماء عن العلم وطلبه

- ١- قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ : «كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تحشعه ، وبصره ، ولسانه ، ويده ، وصلاته وزهده . وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به ، فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها»^(١) .
- ٢- قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ : «العلم علمان : علم الدين ، وهو الفقه . وعلم الدنيا وهو الطب . وما سواه من الشعر وغيره فعناء وعبث»^(٢) .
- ٣- قال الأصمعي : «إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو يدخل في جملة قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار»^(٣) .
- ٤- قال سحنون بن سعيد : «أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً ، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم فيظن أن الحق كله فيه»^(٤) .

(١) «الجامع» (٦٠ / ١) .

(٢) «الحلية» (١٤٢ / ٩) .

(٣) «السير» (١٧٨ / ٩) .

(٤) «الجامع» (١٦٥ / ٢) .

٥- كان بعض الحكماء يقول : «نفعنا الله وإياكم بالعلم ، ولا جعل حفظنا منه الاستماع والتعجب»^(١) .

٦- قال سفيان الثوري : «إذا ترأس الرجل سريعاً أضرب بكثير من العلم ، وإذا طلب وطلب بلغ»^(٢) .

٧- قال العباس بن المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : «جاء عبد العزيز الدراوردي في جماعة إلى أبي ، ليعرضوا عليه كتاباً ، فقرأه لهم الدراوردي ، وكان رديء اللسان ، يلحن لحناً قبيحاً ، فقال أبي : ويحك يا دراوردي ! أنت كنت إلى إصلاح لسانك قبل النظر في هذا الشأن أحوج منك إلى غير ذلك»^(٣) .

٨- قال الزهري ليونس بن يزيد : «لا تكابر العلم فإن العلم أودية ، فأياها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ، ولكن خذه مع الأيام والليالي ، ولا تأخذ العلم جملة ، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»^(٤) .

(١) «الجامع» (١٠ / ٢) .

(٢) «الحلية» (٨١ / ٧) .

(٣) «السير» (٣٦٨ / ٨) .

(٤) «جامع بيان العلم» (١٠٤ / ١) .

من آداب المعلمين والمتعلمين^(١) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

إخلاص النية :

يتعين على أهل العلم من المتعلمين والمعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم الإخلاص الكامل والتقرب إلى الله تعالى بهذه العبادة التي هي أجل العبادات وأكملها وأنفعها وأعمها نفعاً ويتفقدوا هذا الأصل النافع في كل دقيقٍ من أمورهم وجليل ، فإن درسوا ، أو دارسوا أو بحثوا أو ناظروا أو أسمعوا أو استمعوا ، أو كتبوا أو حفظوا ، أو كرروا دروسهم الخاصة ، أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب الأخرى ، أو جلسوا مجلس علم ، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم ، أو اشتروا كتباً ، أو ما يعين على العلم ، كان الإخلاص لله ، واحتساب أجره وثوابه ملازماً لهم ، ليصير اشتغالهم كله قوة وطاعة ، وسيراً إلى الله وإلى كرامته ، وليتحققوا بقوله ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة »^(٢) .

فكل طريق حسي أو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أو يحصله ، فإنه داخل في هذا .

(١) هذه الرسالة ضمن «الفتاوى السعدية» ، وقد جعلت لها عناوين لتقريبها .

(٢) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٧٤) عن أبي هريرة .

طريقة الطلب:

ثم بعد هذا يتعين البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية ، وما يعين عليها من علوم العربية . وتفصيل هذه الجملة كثير معروف يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص .

وينبغي أن يسلك أقرب طريق يوصل إلى المقصود الذي يطلبه . وأن يتتقى من مصنفات الفن الذي يشتغل فيه أحسنها وأوضحها ، وأكثرها فائدة ، ويجعل جل همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظاً عند الإمكان أو دراسة تكرير بحيث تصير معانيه معقولة في ذهنه محفوظة ، ثم لا يزال يكرر ما مر عليه ويعيده .

ما ينبغي على العالم لتلميذه:

وعلى المعلم أن ينظر إلى ذهن المتعلم ، وقوة استعداده أو ضعفه ، فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حاله ، فإن هذا من عدم النصيح ، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم والنسيان .

وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقارير لدرسه بقدر ما يتسع فهمه لإدراكه ، ولا يخلط المسائل بعضها ببعض .

وينبغي ألا يتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يتصور ، ويحقق السابق ، فإنه درك للسابق وبه يتوفر الفهم على اللاحق .

فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض قبل فهم المتعلم ، فإنه سبب لإضاعة الأول ، وعدم فهم اللاحق ، ثم تتراحم المسائل التي لم يحققها على ذهنه فيملها ، ويضيق عطنه عن العود إليها ، فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر .

وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم ، والصبر على عدم إدراكه ، وعلى عدم أدبه ، وجفائه ، مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقوم به ويهذبه ويحسن أدبه .

لأن المتعلم له حق على المعلم ، حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس ، وحيث توجه للمعلم دون غيره ، وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلم هو عين بضاعة المعلم ، فيحفظها وينميها ، ويتطلب بها المكاسب الربحية ، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له ، قال تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٥٠ ، ٦] .

والمراد : وراثته العلم والحكمة .

فالمعلم مأجور على نفس تعليمه ، سواء أفهم المتعلم أو لم يفهم ، فإذا فهم ما علمه ، وانتفع به بنفسه ، ونفع غيره ، كان أجرًا جاريًا للمعلم ما دام ذلك النفع متسلسلاً متصلًا . وهذه تجارة بمثلها يتنافس المتنافسون .

فعلى المعلم أن يسعى سعيًا شديدًا في إيجاد هذه التجارة وتنميتها ، فهي من عمله ، وآثار عمله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ﴾ [يس : ١٢] .

فما قدموا : ما باشروا عمله ، وآثارهم : ما ترتب على أعمالهم من المصالح والمنافع ، أو ضدها في حياتهم وبعد مماتهم .
وينبغي أن يرغب المتعلم بكل طريق ، وينشطه ولا يمل به بإشغاله بما يعسر على فهمه من أنواع العلم ومفرداته .

آداب الطالب :

وعلى المتعلم أن يوقر معلمه ، ويتأدب معه غاية ما يقدر عليه ، لما له من الحق العام والخاص .

حق العالم العام :

أما العام : فإن معلم الخير قد استعد لنفع الخلق بتعليمه وفتواه ، فحقه على الناس حق المحسنين ، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يرشد الناس لأمر دينهم ويعلمهم ما جهلوا ، وينبهم لما عنه غفلوا ، ويحصل من الخير وانقماص الشر ، ونشر الدين والمعارف النافعة ما هو من أنفع شيء للموحددين ، ولمن أتى من بعدهم من ذريتهم وغيرهم ، فلولا العلم كان الناس كالبهائم في ظلمة يتخبطون فهو النور الذي يهتدى به في الظلمات ، والحياة للقلوب والأرواح والدين والدنيا ، والبلد الذي ليس فيه من يبين للناس أمور دينهم ويرشدهم لما يتتابهم مما هم في غاية الضرورة إليه ، قد فقد أهله من ضروراتهم ومصالحهم ما يضر فقده بدينهم ودنياهم .

فمن كان هذا إحسانه ، وأثره على الخلق كيف لا يجب على كل مسلم محبته وتوقيره ، والقيام بحقوقه؟!

حق العالم الخاص:

وأما حقه الخاص على المتعلم ، فلما بذله من تعليمه ، والحرص على ما يرشده ويوصله إلى أعلى الدرجات ، فليس نفع الآباء والأمهات نظيرًا لنفع المعلمين والمربين للناس بصغار العلم قبل كباره ، الباذلين نفائس أوقاتهم ، وصفوة أفكارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرون عليها .

وإذا كان من أحسن إلى الإنسان بهدية مالية ينتفع بها ثم تزول وتذهب له حق كبير على المحسن إليه ، فما الظن بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوعة الباقي نفعها ما دام حيًا وبعد مماته ، المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا ، فحينئذٍ يعرف أن له من الحق والتوقير وحسن الأدب معه والوقوف مع إشارته ، وعدم الخروج عما أشار إليه مما ينفعه من الأمور التي قد جربها وهو أعرف بها منه من كفايات التعليم ونحوها ما ليس لغيره .

احترام العالم:

وليجلس بين يديه متأدبًا ، ويظهر غاية حاجته إلى علمه ، ويدعو له حاضرًا وغائبًا ، وإذا أتخفه بفائدة أو توضيح لمشكل ، فلا يظهر أنه قد عرفه قبله ، وإن كان عارفًا له ، بل يصغي إليه إصغاء المتطلب بشدة

إلى الفائدة . هذا فيما يعرفه ، فكيف بما لم يعرفه ، ولهذا كان هذا الأدب مستحسنًا مع كل أحد في العلوم والمخاطبات في الأمور الدينية والدنيوية .

العمل إذا أخطأ المعلم:

وإذا أخطأ المعلم في شيء فلينبهه برفق ولطف بحسب المقام ، ولا يقول له : أخطأت ، أو ليس الأمر كما تقول ، بل يأتي بعبارات لطيفة يدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه ، فإن هذا من الحقوق اللازمة وهو أدعى إلى الوصول إلى الصواب ، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وإزعاج القلب يمنع من تصور الصواب ومن قصده .

الرجوع عن الخطأ:

وكما أن هذا لازم على المتعلم ، فعلى المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق ، ولا يمنعه قول قائله ثم رأى الصواب في خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه ، فإن هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق فالواجب اتباع الصواب ، سواء جاء على يد الصغير أو الكبير .

ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تلاميذه من ينبهه على خطئه ، ويرشده إلى الصواب ، ليزول استمراره على جهله فهذا يحتاج إلى شكر لله تعالى ، ثم إلى شكر من أجرى الله الهدى على يديه متعلمًا كان أو غيره .

قول العالم: الله أعلم فيما لا يعلم:

ومن أعظم ما يجب على المعلمين أن يقولوا لما لا يعلمونه : الله أعلم ، وليس هذا بناقص لأقدارهم ، بل هذا مما يزيد قدرهم ، ويستدل به على كمال دينهم ، وتحريمهم للصواب .

فوائد التوقف عما لا يعلم:

وفي توقفه عما لا يعلم فوائد كثيرة :

منها : أن هذا هو الواجب عليه .

ومنها : أنه إذا توقف وقال : الله أعلم ، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك من مراجعته أو مراجعة غيره ؛ فإن المتعلم إذا رأى معلمه قد توقف جد واجتهد في تحصيل علمها ، وإتحاف المعلم بها ، فما أحسن هذا الأثر .

ومنها : أنه إذا توقف فيما لا يعرف ، كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل ، كما أن من عرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعياً للريب في كل ما يتكلم به ، حتى في الأمور الواضحة .

ومنها : أن المعلم إذا رأى منه المتعلمون التوقف فيما لا يعلم كان ذلك تعليمًا لهم وإرشادًا لهذه الطريقة الحسنة ، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال .

المنظرة بين المتعلمين:

ومما يعين على هذا المطلوب أنه يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج ، وأن يكون القصد واحدًا ، وهو اتباع ما رجحته الأدلة ، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم تنورت الأفكار وعرفت المآخذ والبراهين ، واتبعت الحقائق وكان القصد الأصلي معرفة الحق واتباعه .

ذم التعصب:

فالحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين ، وهو أن يجعل
 القصد من المناظرة والمباحثة نصر القول الذي قاله ، أو قاله من يعظمه ،
 فإن التعصب مذهب للإخلاص ، مزيل لبهجة العلم ، معمم للحقائق ،
 فاتح باب الحقد والخصام الضار ، كما أن الإنصاف هو زينة العلم
 وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح .

التحذير من طلب العلم للدنيا:

ثم الحذر الحذر من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد
 السيئة من المباهاة ، والمهارة ، والرياء ، والسمعة ، وأن يجعله وسيلة
 للأمور الدنيوية والرياسة ، فليست هذه حال أهل العلم الذين هم
 أهلهم في الحقيقة ومن طلب العلم أو استعمله في أغراضه السيئة فليس
 له في الآخرة من خلاق .

العمل بالعلم:

ومن أعظم ما يتعين على أهل العلم الاتصاف بما يدعو إليه
 العلم من الأخلاق ، والأعمال ، والتعليم ، فهو أحق الناس بالاتصاف
 بالأخلاق الجميلة ، والتخلي من كل خلق رزيل ، وهم أولى الناس
 بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطنة وترك المحرمات لما تميزوا به من
 العلم والمعارف التي لم تحصل لغيرهم ، ولأنهم قدوة للناس ، والناس
 مجبولون على الاقتداء بعلمائهم شاءوا أم أبوا في كثير من أمورهم ،

ولأنهم يتطرق إليهم من الاعتراضات والقوادح عندما يتركون ما يدعوا إليه العلم أعظم مما يتطرق على غيرهم .

وأيضًا فكان السلف يستعينون بالعمل بالعلم على العلم ، فإن عمل به استقر ودام ونما وكثرت بركته ، وإن ترك العمل به ذهب أو عدمت بركته ، فروح العلم وحياته وقوامه إنما هو بالقيام به عملاً وتخلقًا ، وتعليمًا ونصحًا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

طريقة التعليم:

وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلمًا وتعليمًا ، فإذا شرع المعلم في مسألة وضحها ، وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير ، وضرب الأمثال ، والتصوير والتحرير .

ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين ، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تعليمه وتقريره إلى موضوع آخر حتى يحكموه ويفهموه ، فإن الخروج من الموضوع إلى غيره قبل الانتهاء منه يحرم الفائدة كما تقدم .

تعاهد محفوظات المتعلمين:

وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان ، والحث على المذاكرة والمراجعة ، وتكرار الدرس فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار ، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السقي لها وإزالة الأشياء الضارة عنها ، لتنمو وتزداد على الدوام .

أدب الزمالة:

وكما أن على المتعلم توقير معلمه ، والأدب معه ، فكذلك أقرانه ، والمتعلمون معه عليه من مراعاة حقوقهم ، والأدب معهم أعظم من حقوق الأصحاب بعضهم على بعض ؛ فالصحبة في طلب العلم تجمع حقوقاً كثيرة ، لأن لهم حق الأخوة والصحبة ، وحقوق الانتماء إلى معلمهم وأنهم بمنزلة أولاده ، وحقاً لنفع بعضهم بعضاً .

ولهذا ينبغي ألا يدع مكنئاً من نفع من يقدر على نفعه منه بتعليمه ما يجهل ، والبحث معه للتعاون على الخير وإرشاده لما فيه نفعه .

وينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقت غنيمة يتعلم فيها القاصر ممن هو أعلى منه ويعلم العارف غير العارف ويتطارحون من المسائل النافعة ، وليجعلوا همهم معقوداً على ما هم بصدده .

مضار الاشتغال بالناس:

وليحذروا من الاشتغال بالناس ، والتفتيش عن أحوالهم ، والعيب لهم ، فإن ذلك إثم حاضر ، والمعصية من أهل العلم أعظم منها من غيرهم ، ولأن غيرهم يقتدي بهم ، ومن كان طبعه الشر من غيرهم جعلهم حجة له ، ولأن الاشتغال بالناس يضيع المصالح النافعة ، والوقت النفيس ويذهب بهجة العلم ونوره .

القناعة باليسير:

واعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل

أحد ، لا سيما المشتغلون بالعلم ، فإنه كالمتعين عليهم ؛ لأن العلم وظيفة العمل كله أو معظمه ، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك ، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية ، وإقبال المتعلم على ما هو بصدده .

بث العلم:

ومن آداب العالم والمتعلم النصيح وبث العلوم النافعة بحسب الإمكان حتى لو تعلم الإنسان مسألة واحدة ، ثم بثها كان من بركة علمه ، ولأن ثمرات العلم أن يأخذها الناس عنك فمن شح بعلمه ، مات علمه بموته وربما نسيه وهو حي ، كما أن من بث علمه كان حياة ثانية ، وحفظاً لما علمه ، وجازاه الله من جنس عمله .

تأليف القلوب:

ومن أهم ما يتعين على أهل العلم معلمين أو متعلمين ، السعي في جمع كلمتهم ، وتأليف القلوب على ذلك وحسم أسباب الشر والعداوة والبغضاء بينهم وأن يجعلوا هذا الأمر نصب أعينهم ، يسعون له بكل طريق ، لأن المطلوب واحد والقصد واحد ، والمصلحة مشتركة فيحققوا هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم ، ومن له قدم فيه واشتغال أو نفع ، ولا يدعون الأغراض الضارة تملكهم وتمنعهم من هذا المقصود الجليل ، فيحب بعضهم بعضاً ويذب بعضهم عن بعض ، ويبذلون النصيحة لمن رأوه منحرفاً عن الآخر ، ويبرهنون على أن

النزاع في الأمور الجزئية التي تدعو إلى ضد المحبة والائتلاف لا تقدم على الأمور الكلية التي فيها جمع الكلمة .

ولا يدعون أعداء العلم -من العوام وغيرهم- يتمكنون من إفساد ذات بينهم ، وتفريق كلمتهم .

من فوائد الائتلاف:

فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع ما لا يعد ولا يحصى ، ولو لم يكن فيه إلا أن هذا هو الدين الذي حث عليه الشارع بكل طريق وأعظم من يلزم القيام به أهله ، وأنه من أعظم الأدلة على الإخلاص والتضحية للذين هما روح الدين ، وقطب دائرته ، وأن بهذا الأمر يتصف العبد أن يكون من أهل العلم الذين هم أهله ؛ الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

وفيه أيضًا من تكثير العلم ، وتوسعة الوصول إليه ، وتنوع طرقه ما هو ظاهر فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة تمكن أن يتعلم بعضهم من بعض ، وأن يعلم بعضهم بعضًا ، وإذا كان كل طائفة منهم منزوية عن الأخرى ، منحرفة عنها ، انقطعت الفائدة وحل محلها ضدها ، من حصول البغضاء والتعصب والتفتيش من كل منهما عن عيوب الطائفة الأخرى ، وأغلاطها والتوسل به للقدح ، وكل هذا مناف للدين والعقل ، ولما عليه السلف الصالح حيث يظنه الجاهل من الدين .

فالموفق تجده ناصحاً لله بتوحيده ، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً ،
 بإخلاص واحتساب ، وتكميلاتها بحسب وسعه ، وناصحاً لكتاب الله
 بالإيمان بما اشتمل عليه ، والإقبال على تعلمه وتعلم ما يتعلق به
 ويتفرع عنه من علوم الشريعة .

وناصحاً لرسوله ﷺ بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين
 وفروعه ، وتقديم محبته على كل محبة بعد محبة الله ، وتحقيق متابعتة في
 شرائع الدين الظاهرة والباطنة .

وناصحاً لأئمة المسلمين من ولاتهم وعلمائهم ورؤسائهم في محبة
 الخير لهم والسعي في إعانتهم عليه قولاً وفعلاً ، ومحبة اجتماع الرعية على
 طاعتهم وعدم مخالفتهم الضارة .

وناصحاً لعامة المسلمين ، يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما
 يكره لنفسه ويسعى في إيصال النفع إليهم بكل ممكن ، ويصدق ظاهره
 باطنه ، وأقواله أفعاله ، ويدعو إلى هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم
 فنسأله تعالى أن يرزقنا حبه وحب من يحبه وحب العمل الذي يقربنا
 إلى حبه ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

وصلى الله على محمد وسلم^(١) .

(١) تمت رسالة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
العائق الأول : طلب العلم لغير الله	٥
معالجة النية وإصلاحها	٥
القبول متوقف على الإخلاص والمتابعة	٦
من طلب العلم للدنيا أثم	٦
كلام جميل لابن عطاء فيمن طلب العلم لغير الله	٦
كان العلماء يتواعظون بثلاث	٧
معنى قول السلف : «طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله»	٨
قصة توضح مراد السلف في قولهم الأنف	٨
قصيدة للمؤلف في معنى القصة المتقدمة	٩
التحذير من الشرك في النية	١٠
من طلب الحديث لغير الله مكر به	١١
صلاح النية أكبر معين على العلم	١١
تنبيه على خطأ الاستدلال بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ على	
أن العمل يورث العلم دون تعلم	١١
العائق الثاني : ترك العمل	١٣
هتف العلم بالعمل	١٤

- إذا عمل العالم بعلمه فهو عالمٌ وإلا فجاهلٌ ١٤
- العمل بالعلم مدعاة لحفظه ١٤
- دأب السلف العمل بالعلم ١٤
- ترك العمل بالعلم على قسمين ١٥
- الأول : ترك الواجبات الشرعية ١٥
- الثاني : ترك المستحبات ١٥
- العائق الثالث : الاعتماد على الكتب ١٦
- قول الشافعي : «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام» ١٦
- التحذير من أخذ العلم عن الضحفيين ١٦
- أبيات حسنة في هذا المعنى ١٧
- شرح المعنى الذي لأجله ألزم الطالب أخذ العلم من أفواه العلماء ١٧
- العائق الرابع : أخذ العلم عن الأصاغر ١٩
- المعنى الذي لأجله يمنع الأخذ عن الأصاغر ١٩
- حديث : «إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عن الأصاغر» ١٩
- اختلاف العلماء في معنى «الأصاغر» هنا ١٩
- ما رجحه ابن قتيبة وجيه - وكلامه كلام متين ٢٠
- معنى آخر - غير ما تقدم - في المنع من الأخذ عن الأصاغر ٢٠
- هذا الحكم - في الأخذ عن الأصاغر - ليس على إطلاقه ٢١
- شروط الأخذ عن الأصاغر ٢١
- ليس المراد من التحذير من الأخذ عنهم : اطراح معلوماتهم ، كلا ٢١
- الوصية بالعلماء الكبار قبل ذهابهم ٢٢

- ٢٢..... التحذير من أخذ العلم عن الوعاظ والمذكرين
- ٢٣..... العائق الخامس : عدم التدرج في العلم
- ٢٣..... الاستدلال على التدرج بالقرآن
- ٢٣..... ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم
- ٢٤..... التدرج يكون في أمرين : تدرج بين الفنون ، وفي الفن الواحد
- ٢٤..... التدرج يخضع لاجتهاد المعلم ، وطبيعة المكان ، والزمان
- ٢٤..... نماذج من إشارات العلماء وتوجيهاتهم في التدرج
- ٢٥..... نعي ابن عبد البر طلاب العلم في زمنه لما حادوا عن طريقة سلفهم
- ٢٨..... جدول في الطلب رتبته ابن الجوزي
- ٢٩..... الحث على حفظ المختصرات الفقهية ليس دعوة إلى التقليد
- ٣٠..... ليس معنى حفظ المختصرات العمل بكل ما فيها
- ٣١..... كلام للذهبي في غاية الجمال قسم فيه الناس من حيث العلم
- ٣٢..... العائق السادس : الغرور ، والعجب ، والكبر
- ٣٢..... المعاصي سبب لنسيان العلم
- ٣٢..... ذم التكبر والتعظيم والغرور
- ٣٣..... الحث على التواضع
- ٣٤..... ما يعين على التواضع ويقطع الكبر
- ٣٤..... حال شرذمة قليلة ممن ينتسب إلى العلم في زماننا
- ٣٤..... توجيه بديع لابن الجوزي
- ٣٥..... كيف يدفع العالم الكبر عن نفسه
- ٣٧..... العائق السابع : استعجال الثمر

- تصور بعض الطلبة أن العلم لقمة سائغة تصور فاسد ، يفضي إلى شر ٣٧
- حال السلف في صبرهم على مرارة التحصيل ، وطول الجادة ٣٧
- محاورة أدبية ظريفة تبين قيمة العلم ، وأنه لا يحصل إلا بجهد ٣٨
- العائق الثامن : دنو الهمة ٤٠
- بعض الطلبة يمتلك مواهب جليلة إلا أن دنو همته يحرق مواهبهم ٤٠
- قول الفراء : لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين ٤٠
- كلام ابن الجوزي في علو الهمة ٤٠
- أبيات للشيخ ابن سعدي في الحث على الطلب من أنفع الأمور التي تعين على
علو الهمة ٤١
- العائق التاسع ، والعاشر : التسويف ، والتمني ٤٣
- تعريف التسويف والتمني ٤٣
- ذم التسويف ، والتحذير منه ٣
- التمني قسمان : ممدوح ومذموم ٤٤
- شروط التمني الممدوح ٤٥
- التمني المذموم ٤٥
- التحذيرات منه ٤٦
- أبيات في ذم التمني ، وسوء عاقبته ٤٦
- شذرات من كلام العلماء عن العلم وطلبه ٤٨
- من آداب المعلمين والمتعلمين للشيخ ابن سعدي ٥٠
- إخلاص النية ٥٠
- طريقة الطلب ٥١

٥١	ما ينبغي على العالم لتلميذه
٥٣	أدب الطالب
٥٣	الحق العام للمعلم
٥٤	الحق الخاص للمعلم
٥٤	احترام العالم
٥٥	كيفية إصلاح خطأ المعلم
٥٥	الرجوع عن الخطأ فضيلة
٥٧	التحذير من طلب العلم للدنيا
٥٧	العمل بالعلم
٥٨	طريقة التعليم
٥٨	تعاهد محفوظات المتعلمين
٥٩	أدب الزمالة
٥٩	مضار الاشتغال بالناس
٥٩	القناعة باليسير
٦٠	بث العلم
٦٠	تأليف القلوب
٦١	من فوائد الائتلاف
٦٣	فهرس الموضوعات

